حوليات جامعة قالمة للعلوم الاجتماعية والإنسانية
ISSN:1112-7880 EISSN: 2602-5361
المجلد 18/العـدد 2 (ديسمبر 2024)، ص67-86

من قضايا الأدب الهامشي

Among the issues of marginal literature

حنان بن قيراط *[1]

[1] جامعة 8 ماي 1945، قالمة (الجزائر)، benkirat.hanane@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/20 تاريخ القبول: 2024/05/05 تاريخ النشر: 2024/12/01

ملخص:

تسعى دراستنا لاستجلاء بعض قضايا الأدب الهامشي التي شكّلتْ خصوصيةً في علاقاته ومميزاته وطبيعة موضوعاته، لرصد وتحليل جملةٍ من المفاهيم للكشف عن طرائق اِشتغالها وتعبيرها الجمالي، بعدما شكّلت هذه القضايا حضورًا قويًا في نتاج كثيرٍ من الأدباء اليوم، وكانت لها جوانبها الإيديولوجية والسياسية والثقافية والاجتماعية على حدٍّ سواءٍ في تجاوز الفكر التقليديّ باعتبارها من أكثر القيم المؤثّرة في الوعي الثقافيّ العام، لذلك كان مهمًّا تبيّن جوانبها، والكشف عن الأثرِ الذي تتركه في القارئ والدارس أيضًا.

كلمات مفتاحية: *الأدب المركزي، الأدب الهامشي، قضايا الأدب الهامشي، الشكل والمضمون، الالتزام.*

Abstract:

Our study seeks to clarify some of the issues of marginal literature that constituted a peculiarity in its relationships, characteristics, and the nature of its topics, to monitor and analyze a number of concepts to reveal the methods of their operation and aesthetic expression, after these issues formed a strong presence in the production of many writers today, and had their ideological, political, cultural, and social aspects in equal measure. Both in transcending traditional thought as it is one of the most influential values in general cultural awareness, so it was important to clarify its aspects, and to reveal the impact it leaves on the reader and the student as well.

Keywords*: Central literature, marginal literature, issues of marginal literature, form and content, commitment.*

* المؤلف المرسل: حنان بن قيراط ، الإيميل : benkirat.hanane@univ-guelma.dz

– مقدّمة:

ليس الحديث عن قضايا الأدب جديدًا على الساحة الأدبية والنقدية؛ فلطالما كان الاهتمام بالبحث في جوانب لغويةٍ وفكريةٍ عديدةٍ مرتبطًا بها، وشكّل صورةً للمعيار المطلوب بأوجهٍ متعدّدةٍ، ولطالما جسّد الأدباء أسلوبًا جديدًا غَذوه بعقولهم الخصبة وبما ابتكروه من معانٍ وموضوعاتٍ وأساليب ظلّتْ تتطوّر مع الزمن. وبتطوّر الأدبِ، بقيَ يخضع في تقييمه لمعايير مختلفةٍ تراوحت بين اللغة وطريقة الحبك الفنيّ، وبين المحتوى والمتلقيّ، ووُضعت شروطٌ على الأدب والأديب وأُعتبر أدبَ النخبة الذي يخضع لقوانين صارمةٍ تقوم على اللغة الفصحى، واِعتبرتْ ما سوى ذلك أدبًا دونيًا ارتبط بالجماهير التي خصّصتْ لها أدبًا خاصًّا سميّ بالأدب الهامشي، عبّرتْ من خلاله عن اهتماماتها وانشغالاتها وكانت له أيضًا قضاياه التي عبّرتْ عن رؤى ومواقف من واقع الطبقات الهامشية وعالمها المهمَّش.

كثيرًا ما ارتبطتْ قضايا الأدب الهامشي عبر العصور بالمتغيّرات الفكرية والفلسفية والسياسية والاجتماعية... وارتبطتْ أيضًا في ظاهرها بالإبداعات الأدبية التي جسّدها الأدباء وفق نسقٍ معيّنٍ يخالف العرفَ السائد آنذاك.

ومن هنا سنحاول أن نتتبّع بعض قضايا الأدب الهامشي والقيم التي أصبحتْ سائدةً اجتماعيًا وفكريًا ونقديًا وفنيًا بما يتماشى ورؤاها المستحدثة، من خلال الإجابة عن الإشكاليات الآتية:

- هل تجاوز الأدب الهامشي أطروحات وقضايا الأدب الرسمي؟
- كيف بلور الأدب الهامشي قضايا المجتمع لتتماشى وتتناسب مع العصر ومستجدات الأدب؟
- ما هي أبرز القضايا التي اهتم بها الأدب الهامشي؟

1. مفاهيم بين الأدب المركزي والأدب الهامشي:

كثيرةٌ هي النصوص التي تمّ اِختزالها وتصنيفها وفق ضوابط ومقاييس تتعلّق بجوانب سياسية أو إيديولوجية أو اجتماعية، جعلتْ فارقًا بين أدبٍ مركزيٍّ رسميٍّ ومتداولٍ وبين أدبٍ آخر منبوذٍ: " لقد وثّقتْ المصادر الأدبية العربية أزمة النصوص الشعبية وحتّى الفصيحة منها، لا لأسبابٍ أدبيةٍ ثقافيةٍ ولكن لخلفياتٍ ومواقف تنحدر من قراراتٍ سلطويةٍ "[1]. وتسعى السلطة لدرء الصراع والتناقض بين هذه الثقافات والطبقات: " وتتحوّل السلطة الرمزية – من خلال الإجماع– إلى سلطةٍ إيديولوجيةٍ تمارس العنف الرمزي لتؤكّد موقفها التقليدي من قمع باقي الأشكال الرمزية للفئات الأخرى في المجتمع "[2]. وقد جَمع هذا الأدبُ الجماهيري بين الإنتاج الشعبي الشفوي، والإنتاج المدوّن أو المكتوب بلغةٍ أقلّ فصاحةً من الأدب الرسميّ. وهذا يُظهر

أنّ القرارات منبعثةٌ من مركزيةٍ إيديولوجيةٍ دون مراعاة مقاييس أدبية أو جمالية... وهو ما نشهده مع الأدب الشعبي العربي منذ القديم حين ارتبط بالأسواق، وعُدّ أدبًا هجينًا سوقيًا لا يرقى للأدب الفصيح بحكم شعبيته التي تنبثق عن الذات الحرّة التي تعرّض بسياسة الحكّام، كما هي الحال مع بعض السير الشعبية، وإن كشفتْ إستراتيجية تعبيريةً وتصويريةً وعكستْ فلسفةً واقعيةً وفكريةً عميقةً.

وأمام وجود ثقافتين متوازيتين – إن لم نقل متناقضتين– تمّ إهمال كلّ ما يقع خارج حدود أدب النخبة وعدم التسليم بشرعيته: " وهنا ألفى الناقدُ نفسَه في مواجهة نوعين من الثقافة: ثقافةٌ رسميةٌ مكرّسةٌ بقوّة القانون والممارسة، أنتجتْ بدورها أدبًا رسميًا يُدرس في المؤسّسات التعليمية ويخضع للنقد والتأويل. مقابل ثقافةٍ ثانويةٍ مهمّشةٍ تمخّضت عن أدبٍ استهلاكيٍّ متدنّي لا يرقى إلى أن يلج عالمَ التدريس أو التفسير، وهو ما يُعرف بالأدب الموازي أو المعادل أو الشبيه أو الهامشيّ "[3]. وتبقى بالرغم من ذلك لكلّ ثقافةٍ مراكزها وهوامشها، تتجدّد بسياق حال المجتمع وأفكاره وتطلّعاته. وانطلاقًا من ذلك سنبيّن جدل العلاقة بين الأدب المركزي والهامشيّ، من خلال الاعتراف بالأوّل وإقصاء الثاني، علمًا أنّ هذا التصنيف لم يكن اعتباطًا بل استنادًا لمعاييرٍ عديدةٍ.

ومن المهمّ الإشارة هنا إلى أنّ الحديث عن نظرية الهامش غالبًا ما يستدعي الحديث عن نظرية المركز؛ فلا وجود لمركزٍ دون هامشٍ، ولا وجود لهامشٍ دون مركزٍ.

يحظى الأدب المركزي/الرسمي بالاهتمام، فتُقام له الملتقيات والنوادي ويُدرج في مناهج التدريس ويُصوّر حياةَ النخبة والطبقة الحاكمة، ذلك أنّ لكلّ طبقةٍ أدبها الذي يميّزها، فهناك أدب النخبة وهناك أدب الطبقات المهمّشة الذي: " يُطلق على كلّ أدبٍ منبوذٍ ومتجاوزٍ لسلطة المركز"[4]. وهو ما يعكس حضورَه المحتشم مقارنةً بالنصوص الرسمية في المنهاج الدراسيّ والجامعيّ من حيث الحجم الساعي ومحاور مادّته المدرَّسة.

ونجد في السنوات الأخيرة شيوع العديد من المصطلحات مثل: أدب الأقليات، الآداب المضادة، الآداب الإقليمية، الآداب المحظورة، أدب الهامش، أدب المهمّشين، الأدب الهامشي، أدب العامّة، الأدب الاستهلاكي، الأدب التجاري**Littérature Marchand**، الأدب اللاشرعي عند الألمان **Littérature batarde**، الأدب المرمي عند الإنجليز **Littérature à jeter**، الأدب السفلي **Infralittérature**، الأدب الموازي **Paralittérature**...

مثلما نجد تعدّدًا في المصطلحات، نجد كذلك تعدّدًا في المفاهيم، وينبغي أن نقرّ بصعوبة وضع أو تحديد مفهومٍ جامعٍ مانعٍ للأدب الهامشي، نظرًا لتعدّد جوانبه الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية... ويمكن- مع ذلك– تقديم بعض التعريفات: ذلك أنّه الأدب المتجاوز

للمألوف والمتمرّد على القوانين الفنية المعتادة، وهو الأدب الذي لا يعترف بالقوالب الجاهزة سواء على مستوى الموضوعات أو الإشكالات الراهنة المتعلّقة بالمبدع أو المجتمع أو تقنيات الكتابة: " فالرواية التي تنتمي إلى الأدب المضاد (الرواية الجديدة) تشترك مع الرواية الموازية في خرقها الجماليات التي أقرّتها المؤسّسة الأدبية. لكن الاختلاف يكمن في كون القواعد السردية في الأنواع الاستهلاكية تعمل بصفةٍ عمياء، بينما تعمل هذه القواعد في الرواية الجديدة من خلال خَرْقها ومحاولة تكسير منطقها "[5].

وفي مثل ذلك يقول **حسن بحراوي** مؤكّدًا: " أدب الهامش هو كلّ أدبٍ يُنتج خارج المؤسّسة سواءً أكانت سياسيةً أو اجتماعيةً أو ثقافيةً أو أكاديميةً. وهو بذلك يقع بعيدًا عن الرعاية والاحتضان بل ويجري العمل على نبذه واستبعاده من دائرة الضوء. وقد تُسلَّط عليه الرقابة والمنع إذا ما بدا عليه أنّه يتجاوز الخطوط الحمراء المنبّه عليها. ولمّا كانت الأجناس الأدبية هي نفسها صنيعة المؤسّسة الرسمية فإنّها تَعْتبر هذا الأدب كائنًا منبوذًا ومهمّشًا لعدم انضباطه لتوجهاتها واختراقه لبنياتها الموّجهة من طرف التقليد الأدبي المتعارف عليه"[6]. وتستوي– حسبه- مختلف الأنماط المسمّاة ما تحت الأدب كشعر الصعاليك والشعر المناوئ للدعوة الإسلامية وأدب الخوارج الأموي والأدب الشعبوي والمقامات الشعبية والكتابات الشبقية والصوفية... وميزتها الأساسة اختراقُ المألوفِ وانْتهاك الطابوهات الأخلاقية والاجتماعية وتجاوز حدود المقدّس والمحظور.

وكذا الحال عند محاولة تعريف أدب الهامش الذي يتنافى مع هامشيته، لأنّ إخضاعه للتجنيس أسوةً بأيّ مفهومٍ يناقض أصل طبيعته ومنشئه، بيد أنّه يمكن: " تحديد كتابة الهامش استنادًا إلى مصطلحات نظرية التلقي الشهيرة بوصفها تلك الكتابة التي تنزاح عن أفق انتظار القارئ النموذجي أو المثالي. أي تُخالف ما يتوقّعه منها من تكريسٍ للقيم الأدبية السائدة ومسايرة للرياء الأخلاقي الذي تتداوله الآداب وتعلي من شأنه تقليديًا "[7]. وبذلك يرفض الأدب الهامشي قيود الكتابة التقليدية القديمة ويتمرّد على المنظومة الرسمية والمألوف والسائد، ويكون حافلاً بالجديد ولا يخضع للرقابة المؤسساتية .

ونلمس فيما تُنتجه الجماعة الشعبية أدبًا شعبيًا في عالمها المهمّش يجسّد ثقافتها، وتَبْني من خلاله عالمًا مستقلاً لا تراه ولا تصل السلطة إليه، فيكون فعلاً لمقاومة تهميش الذات، إذ بتهميش طبقات المجتمع يتمّ معه تهميش الثقافة الطبقية داخل المجتمع، ليبدو أنّ هناك ثقافةً واحدةً وأدبًا واحدًا. لذلك عُدّ الأدب الشعبي أصدق في التعبير عن وجدان الشعوب وما تجيش به قرائحهم التي أنهكتها الأزمات وليس نِتاج عقول مؤرّخي البلاط، فأضاء ما أهمله الأدب الرسمي وأثبت وجود طبقةٍ تواجه النخبةَ التي تخلّت عن دورها في قيادة المجتمع نحو الأفضل،

وبحثًا عن سبلٍ تَحُدّ من الهامش لإعادة الأمور إلى نصابها، فلا تبخس الهامش باسم المركز. لذا على الأدب الهامشيّ أن يوجد لنفسه مكانًا بين الأدب المركزي الفصيح: " ليس لأنّ هناك أدبًا مركزيًا يتهدّده أو ينافسه ولكن تحديدًا لكي يحافظ على وحدة كيانه والاستمرار في اجتراح الطريق الذي يقوده إلى مزيدٍ من الاستقلالية والحرية "[8]. وهذا يجعل منه أدبًا مركزيًّا يتجاوز حدود المسموحِ به في التفكير والتعبير والإبداع، ويملك من التميّز والخصوصية وهو يعيش في الظلّ أكثر ممّا يملكه الآخر وهو مغمورٌ بالأضواء.

2. فاعلية الأدب الهامشي:

في فرنسا، كان من أهمّ النقاد الذين اهتموا بفئة المهمّشين وآدابهم الهامشية في تاريخ الأدب الفرنسي الحديث هو **برنارد موراليس Bernard Mouralis** في كتابه **الآداب المضادة contres Littératures Les** الذي ترجمه وقدّم له الدكتور **حسن الطالب** إذ يقول في مقدّمة ترجمة الكتاب: " درج مؤرّخو الأدب في تواريخهم الوطنية أو المحلّية أو العالمية على الاهتمام بالأدب الرسمي أو الراقي أو الرفيع وبالتالي بالأدباء الكبار والأعلام المشاهير والعباقرة... وغضّوا الطرف عن كلّ ما يسمّى أدبًا ثانويًا أو هامشيًا أو شعبيًا أو هجينًا... بدعوى أنّ هذه الأشكال لا ترقى من حيث المكانة ولا من حيث اللغة إلى الآداب الأولى"[9]. فقد أضحتْ مثل هذه الأنواع الإبداعية تحيل إلى إشكاليةٍ كبرى لم تفتك اعتراف المؤسّسة الأدبية الشرعية؛ أي أنّ الكتابات التي تدور خارج إطار الشرعية النقدية والأدبية التابعة للثقافة الرسمية، فإنّها تصنّف ضمن الهامشيات إمّا على أساس التجنيس أو الموضوعات. وقد يتجاوز الأمر ذلك بكثيرٍ لأنّ أنواع وفنون الأدب الهامشي ظلّتْ تجتاز الساحة الثقافية أمام القرّاء الفرنسيين وتمكّنتْ من بسط نفوذها وتأثيرها عليهم حتّى كثرتْ الترجمات من الأدب الهامشي الأمريكي، وأصبح هناك كتّابٌ يكتبون بأسماء مستعارةٍ. وزاد ذلك من ظهور دور النشر والمجلات التي اهتمّتْ بهذا المولود الجديد مثل: **Galaxy anticipation, Vision future, Temps future Science et aventure,** ... لكن التجربة لم تُكتب لها الحياة والاستمرارية بعد أعدادها الأولى، ثمّ تجدّدتْ التجربة مع نشرية جديدة عُرفتْ باسم **الشعاع العجيب Le rayon fantastique .**

وقد استمرّ هذا التقليد في معظم التواريخ الأدبية العالمية وفي مختلف الجهات والأقاليم إلى العقود الأخيرة من القرن الماضي وكانت له تأثيراتٌ سلبيةٌ على طرق نمذجة الأدب وتصنيف نصوصه والمعايير الجمالية والنقدية التي تتوي خلف تقييم والحكم على مر الحقب والعصور. غير أن الأمور تغيّرت على نحوٍ جذري في العقود الأخيرة حيث أُعيد النظر في جملةٍ من التصنيفات والمعايير النقدية (الأدب/ اللاأدب، الأدب الرسمي/ الأدب الشعبي، الأدب الرفيع/ الأدب الهجين، الآداب الراقية/ الآداب الهامشية أو الملحقة أو الموازية "[*].

وقد افترض **موراليس** إعادة الاعتبار للنصوص المهمّشة مع توسيع مفهوم الأدب ليطال كلّ الأشكال التعبيرية المستحدثة التي ما تزال يُنظر إليها نظرةً مشوبةً بنوعٍ من التحفّظ؛ إذ غالبًا ما يكون الاعتراف بهذه الأنماط مصحوبًا بإبداء نوعٍ من الحياد -حسبه- مثل: الآداب الإقليمية والشعبية وآداب البلاد المستعمَرة في الماضي والمكتوبة بلغة المستعمِر، شرائط الرسومات، الخربشات أو كتابات الأدباء، الحوليات والبيانات الأدبية والصحافة، النصوص الإشهارية والدعائية والشفاهية أو المكتوبة... ليتساءل عن المكانة التي تحتلها أو ينبغي أن تحتلها مثل هذه الآداب في التاريخ الأدبي؟

ويرى **موراليس** أنّ لائحة الآداب الهامشية التي بدأت تغزو الساحة الأدبية بشكلٍ مثيرٍ بمختلف الأجناس التي تضمّنتها، ستكون مفتوحةً دائمًا لتقبّل أنواعٍ جديدةٍ ومستحدثةٍ، لأنّ الاستحقاق الذي ينبغي أن ينالها هو لفت الانتباه إلى ضرورة تعدّد أشكال النشاط الأدبي أوّلاً التي تتغيّر باستمرارٍ حسب الحاجة وروح العصر ومتطلّبات الجمهور والقرّاء، وأن ثمّة وجهات نظرٍ متعدّدةٍ سواء من جهة الكاتب أو القارئ المتلقي لاستعمال كلمة **أدبيّ** خاص للّغة الأدبية، أيًّا كان نوع النصوص التي نتناولها بالدرس، فيقول: " ولئن ظلّ الأدب ولا يزال في الواقع قيمةً ثقافيةً ساميةً في حضن مجتمعنا، فينبغي أن نتذكر في المقابل أنّ الناس لا يعينون ولا يتناقلون باسم "الأدب"، إلّا النزر اليسير مما تمّ إنتاجه على مدى العصور"[10]. وبذلك تشكّل الآداب الهامشية حقلاً خصبًا ينبغي أن تنصبّ عليه مختلف أبحاث التاريخ الأدبي، وهذا يفترض بالخصوص ألا تُرسم أيّ حدودٍ مسبقةٍ بين الأدبي وغير الأدبي.

وهكذا يدعو **موراليس** للكفّ عن اعتبارها مجرّد آداب أكشاكٍ لقتل الوقت وسدّه، أو أنها تتسبّب في إفساد الذوق كونها تتعرّض لمضامين غير أخلاقيةٍ أو موضوعاتها المغرقة في الخصوصية والمحليّة... ومن ثمّ إعادة الاعتبار لها توسيعًا لمفهوم الأدب نفسه وإحداث شرعيةٍ على مختلف الممارسات الأدبية المستعمِلة للغة أو الصورة ليطال كلّ الأشكال التعبيرية الجمالية.

وبذلك، كان الأدب الهامشي شاهداً على التحوّلات الجذرية التي عرفها العالم الغربي في مختلف المجالات العلمية والفكرية والفنية والأدبية، فكانت مواضيعه لصيقةً بالواقع ومستمدّةً منه بشكلٍ كبيرٍ ومباشرٍ، وكان لها تغييرها في مجالاتٍ عديدةٍ. وقد ازدادتْ مواضيعها غنىً وتعقيداً وتنوّعاً مع الزمن، خاصّةً بعد رواجه وانتشاره في أماكن عديدة من العالم بدءًا بأمريكا ثمّ أوروبا ثم الوطن العربي.

3. قضايا الأدب الهامشي:

يقتضي الحديث عن قضايا الأدب الهامشي مقاربةَ مجموعة أمورٍ وموضوعاتٍ تتعلّق أوّلاً بإشكالية قضية تصنيفه ضمن حقل الآداب بعد أن تمّ تهميشه وإقصاؤه من خانة الآداب الرسمية؛ فإذا قلنا مثلاً إنّ الأدب في عمومه يتمثّل في فنّ الكلمة الإبداعية سواء أكانت مقروءةً أم مسموعةً، فإنّ علينا التساؤل هنا أيضًا: هل يتمثّل الأدب فيما اِرتبط بالنصوص الشعبية؟ وهل يتمثّل الأدب فيما ظهر من نتاجاتٍ إبداعيةٍ جديدةٍ تمّ غضّ البصر عنها؟ وإذا تمثّلنا الأمرَ عن حقيقة الأدب، فمن الطبيعيّ إذن أخذ مثل هذه النتاجات الجديدة ضمن قائمة الأدب، لأنّها حَوَتْ ما هو شعرٌ وما هو روايةٌ وما هو فنونٌ بصريةٌ... ومن ثمّ يمكن الحديث عن قضايا أخرى تتعلّق به نظرًا لتوارد موضوعاتها بشكلٍ كثيفٍ في أنواعه مثل: الأدب النسوي، الأدب الزنجي، جدل الأنا والآخر بين المركز والهامش، الأدب الشعبي، الروايات الجديدة...

نستطيع أن نقرأ التهميش في العديد من النصوص الأدبية عبر التاريخ الإنساني، ومثلما اهتمّ الأدب الرسميّ بالحديث عن قضايا عديدةٍ كذلك الأدب الهامشي، لكنّه ركّز عليها كثيرًا وتناولها من جوانب وموضوعاتٍ عديدةٍ. ويمكن أن نُلْفيه قد قرأها من زاويةٍ نقديةٍ جديدةٍ حاولتْ تلمّس قضايا عفا عليها الزمن أو بُخستْ حقّها، وحاول رفعها عاليًا بعيدًا عن زخم الأفكار والإيديولوجيات المهيمنة. وحتّى إن اِعترف الأدب الهامشي من قضايا الأدب الرسمي، فقد كان له منظاره الخاصّ في التعامل معها، فحاول وضع مدخلٍ جديدٍ بمفهومٍ جديدٍ أو قراءةٍ مغايرةٍ تحكي وعيًا صريحًا، كالحديث عن قضايا التهميش سواء أكان المهمّش موضوعات أدبية تسمى التابو، أو كان شكلاً أدبيًا مستحدثًا خارجًا عمّا هو سائدٌ ومألوفٌ؛ إذ تَستقطب تجربةُ حريّة الكتابة كنمطٍ خاصٍّ عند بعض الروائيين بمختلف تجلّياتها، ما يُكتب من موضوعات قد تُثار حولها ردود فعلٍ عنيفةٍ. وبقدر ما تكون الحريّة الإبداعية عند الكاتب بقدر ما يُشدّد الخناق عليها، حتّى وإن استأثرت اهتمامَ النخبة أو العامّة؛ ذلك أنّ الإبداع:" هو فنّ المغامرة الجمالية... التي تعبّر عن فعلٍ اختراقيّ من طرازٍ رفيعٍ "[11]. ومثل هذه الكتابات في طبيعتها جريئةٌ ومراوغةٌ وتقتحم التابو لتعبث بمكنوناته الخفية أو الظاهرة أو لتطعن في منظومة القيم والقواعد القارّة بذوقٍ جماليٍّ يقوم على حريّة التخيّل والتعبير. يقول **ميشال بوتور:** " لكلّ موقفٍ جديدٍ، ولكلّ مفهومٍ جديدٍ لمضمون الرواية وللعلاقات التي تقيمها مع الحقيقة ولهيكلها، تناسب مواضيع جديدة، وبالتالي تُناسبها أشكالٌ جديدةٌ على مستوى اللغة والأسلوب والتقنية والتأليف والبناء. وعلى النقيض من ذلك فإنّ التفتيش عن أشكالٍ جديدةٍ يُظهر مواضيع جديدة ويكشف عن علاقاتٍ جديدةٍ "[12]. وقد يكون في هذا الجديد انتهاكًا لحرمة التابو ما يعرّض الإبداع وصاحبه للمراقبة وشدّ الخناق.

وإن كان في هذه التابوهات حديثٌ لا يخلو من جرأةٍ واختراقٍ لمختلف القيم والمحظورات، هناك من يجعلها بديلًا وطلبًا للحريّة وهدفًا للتعبير وإقصاء النظرة المتزمّتة إزاء قضايا معيّنة، فنلمس الصراع بين طرفينِ متعاديينِ، يراه أحدهما إضافةً للجديد وتوفير نوعٍ من الخصوصية للإنتاجات الأدبية، بما يكشف الصراع الاجتماعيّ والإيديولوجيّ الذي يعيشه المجتمع.

1.3. الأدب الهامشي وقضية التصنيف والتجنيس:

إنّ كبرى القضايا التي تناولها الأدب بمختلف الأطُر الفنيّة، تعكس قواعد إنسانية شهيرة منذ اليونان والرومان: " فأبناء الحضارة الأوربية الحديثة خيرُ خلفٍ لأجدادهم، لأنّهم عَرفوا كيف يبنون الفنّ والعلم والأخلاق وعلم الاجتماع والفلسفة على ضوء الإبداع الحديث"[13]. وإذا قارنّا الأدب الهامشي مع الأدب الرسميّ، فلا شكّ سنجد انسجامًا يتوافق مع ما يتضمّنه كلّ منهما من مذاهب وفنونٍ وأنواعٍ... وإن اختلفتْ في وجوه الوسيلة والموضوعات وطريقة المحاكاة والأسلوب كما قال بذلك قبلاً **أرسطو** في كتابه **فنّ الشعر**، حيث تتميّز في كلّ حالٍ عن سواها؛ إذ التمايز في محاكاة أنواع الأدب الهامشي نجدها تتمثّل ما قاله **أرسطو** عنها: فبعضها يحاكي بالألوان والرسوم كالتصوير والرسم، ومنها ما ارتبط منها بدراسة الأغلفة والخطابات الإشهارية الثابتة ورسوم الكاريكاتير والكتابات الحائطية، ومنها ما يحاكى بالصوت كالخطاب الإشهاري السمعي... وبالتالي فمحاولتنا لربط الأدب الرسمي بالهامشي لا تعني أنّ الأنواع الفنيّة الخاصّة بكلّ واحدٍ منهما خاضعةٌ لتاريخٍ واحدٍ وأحكامٍ واحدةٍ، بل على العكس فلكلّ واحدةٍ مادتها وأساليبها.

ويسعى الأدب الهامشي لاكتساب مكانٍ مناسبٍ يتماشى مع الأدب الرسميّ في أيّ مجتمعٍ من المجتمعات العربية أو الغربية؛ فكأنّي به يلخّص في قضاياه وموضوعاته مواقفَ جماليةٍ للقارئ والجماعة، تعكس تطوّر البورجوازية وانعكاساتها حتّى على الطبقة الأرستقراطية وثقافتها وهيمنتها، وكأنّي أيضًا أراه يتمثّل بطرقٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ تقاليد جديدة في الكتابة الأدبية الإبداعية في تطوّرها وخصوصية مواضيعها التي لا ولن تُدرك إلّا في ظلّ محاولة فهم وإدراك روح العصر الذي وُلدتْ فيه، وتمثّلتْ ثقافةَ وفكرَ ومتطلّبات الجماهير الشعبية التي أعادتْ تشكيله وفق قالبٍ مناسبٍ تراه هو الأجمل والأنسب، هذا وإن افترض الأدبُ عمومًا وجودَ توافقٍ بين الصيرورة والخلود والعالمية والإنسانية: " إنّ الإبداع يتحدّد في هذا المنظور كلغزٍ، وفي الوقت نفسه كضرورةٍ متكيّفةٍ حسب حاجات المجتمع المثقّف والمحدّد جغرافيًا واجتماعيًا"[14]. وحين يعبّر الأديب ويُبدع في كتاباته فهو يرى العالم بفكره وأحاسيسه، فنراه: " يتمثّل العالم ويقول الواقع الذي يسيطر عليه والذي هو مالِكُه أيضًا بكلامه وذكائه وأحيانًا

بماله"[15]. وهذا لأنّ الأدب الهامشي أيضًا يرتبط بفكرةٍ أو أسلوبٍ أو موضوعٍ، كلّها مرتبطٌ بالواقع ويسعى لتمثّل عوالمه بالِتزامٍ أو عدم اِلتزامٍ أو اِمتناعٍ عن قول أشياء، وهنا يتحدّد معنًى ويَنسج آخرُ خيوطَه في الخفاء بعيدًا عن أعين الرقابة والرقباء منذ لحظة الكتابة نفسها؛ كأنْ لا يكون المهمَّش شكلاً أدبيًا مستحدثًا، بل موضوعٌ من موضوعات الإبداع التي تخصّ التابو والمحظور، وهذا التصنيف قد يحرم النصّ من الاندراج ضمن خريطة الأنواع الأدبية المعترف بها التي لها مصداقيتها ومشروعيتها، ويضعها في متاهةٍ فضاؤها غير واضح المعالم والتفاصيل.

يسعى الأدب الهامشي بذلك للانخراط ضمن خارطة الأجناس الأدبية عمومًا في شرعيتها الشعرية والنثرية، وبما تضمّنه من أدبٍ شعبيٍّ اِرتبط بالجماهير الشعبية في عاميتها وحياتها وثقافتها وتطلّعاتها، وحتّى في أعراف جماعته التي وُلد فيها بعيدًا عن الاستسلام المغيّب الذي يجعله خاضعًا لنمطٍ ثقافيٍّ هَيْمنَ طويلاً وبقي يسعى ليجعله يعيشُ غريبًا وسطَ أهله أو لقيطًا منبوذًا ضمن جماعةٍ تَرفضه وتَحْكم عليه بالتهميش والإقصاء. لكن الأدب الهامشي في أيّ حالةٍ من الحالات يؤكّد مشروعيته بنفسه ولغته وموضوعيته التي تحدّد استقلالية الإبداع الأدبي عن أيّ قيودٍ تكبّله. ومن هنا حين نقرأ نصوص الأدب الهامشي نجدها تقيم علاقاتٍ متبادلةً مع الأدب والمجتمع وكثيرٍ من المعارف والعلوم والفنون... تنشأ في إطار التجديد، لذلك وجب إعادة الاعتبار لنظرية الأدب إن لم تستوفِ الشروط خارج إطار التجديد. وما دام الحديث يدور في إطار قضايا الأدب الهامشي، وَجَب الحديث كما تقتضي الضرورة العودة إلى الموقف من الأدب الهامشي.

ومن هنا، تبقى قراءة الأدب من خلال مختلف جوانبه المركزية والهامشية فكرةٌ مطروقةٌ في قالبٍ جدليّ كبيرٍ، حين يريد الهامش الاعتلاء إلى المركز. ولكن ظلّت فكرة الهامش تُفهم على نحوٍ يجعلها خارجة عن إستيطيقا الأدب، في حين أنّه ليس خارجيًا عنه بل كامنٌ فيه ليقدّم صورةً مختلفةً عن المجتمع تركّز على الجزئيات الصريحة بطرقٍ وأساليب فنيةٍ عديدةٍ. وهذا يجعلنا نقرأ الشخصية المهمّشة بحقٍّ، التي تعيش إقصاءً اجتماعيًا وتعيش تحت ثقل أزماتٍ اجتماعيةٍ حادّةٍ.

2.3. الأدب الهامشي وقضية التحرّر والالتزام:

يُطرح جدالٌ هامٌ عن مكانة الأدب الهامشي ضمن حقل الآداب الرسمية وأهمّ قِيَمِه وفوائِدِه، فهل تتوقّف حدوده عند قِيمته بعيدًا عن أيّ هدفٍ خارجيٍّ آخر؟ أم أنّ له غاياته وأهدافه المحدّدة؟

لئن كان الالتزام في الأدب والفنّ حتّى القرون الوسطى مقيّدًا بأغراضٍ دينيةٍ، فقد بدا التحرّر من ذلك مع عصر النهضة الأوروبية الذي كان خطوةً انتقاليةً للأدب والفنّ على السواء

ممّا كانا عليه نحو إحياء التراث ودراسته وتجديد الفكر بصياغة قواعد جديدة تساهم في كشف كوامن الأدب في مختلف أنواعه وفنونه؛ فكان عصر النهضة: " عصر بدء التحوّل من مجتمع متديّنٍ إلى مجتمعٍ دنيويٍّ مالَ فيه الفنانون والشعراء نحو العلوم الجديدة ليتثقّفوا بثقافة العصر، أي بمعنى أنّ الفنّ بكافة إنتاجه الرائع بقي مرتبطًا بالدين حتّى أنّ الشعر كثيرًا ما وُصف بأنه لونٌ من ألوان اللاهوت، وحتّى الفنانين نظر إليهم أنّهم نوعٌ من الرهبان، بعدما سادتْ أجواء الشعراء والفنانين سمة الفضيلة والتقوى في تربيتهم"[16]. وكانت بداية التجديد مع راسين **Racine**، كورنيه **Corneille**، موليير **Molière**...

وأضحى الأدب في العصر الحديث ذا رسالةٍ هادفةٍ ومحدّدةٍ كغيره من الفنون، خاصّةً بعدما اِرتبط بعامّة الناس التي تتذوّقه ولم يَعُدْ حكرًا على طبقةٍ فقط: " فكان الفضل بذلك لانتشار الكتب إثر تقدّم فنّ الطباعة مع انخفاض أسعار المطبوعات. وبذلك ازداد عدد القرّاء في كلّ قطرٍ ومصرٍ، فانمحتْ الأميّة في كثيرٍ من البلاد التي يسودها التعلّم الإلزامي"[17]. وما إن جاء النصف الثاني من القرن 19 م حتّى طُرحتْ أفكارٌ جديدةٌ على الساحة الأدبية والفنية، ارتبطتْ برواج المذهب الواقعيّ، واعتبرت الأدبَ وباقي الفنون مرآةً صادقةً لحياة المجتمع، ليعبّر عن أهدافه ومُثله العليا، التي جسّدتْها الرواية أحسن تجسيدٍ، وكان الأدب ستارًا للمجتمع وآفاته وعيوبه، وبقيتْ فكرة الالتزام بقضايا المجتمع طاغيةً بعدها.

والحقيقة أنّ الأديب حين يكتب يضع هدفًا معيّنًا نصب عينيه ويبقى يتمثّله حتّى نهاية عمله، وهذا الهدف قد يتعلّق بالترويج لأفكارٍ معيّنةٍ أو تحقيق فائدةٍ ومنفعةٍ... ومن المعلوم أنّ الأدب منذ ظهوره في أيّ من الآثار العالمية وُجد لتحقيق مبادئ هادفةٍ نحو قيمٍ إنسانيةٍ فاضلةٍ ولتحقيق الأفضل للإنسان، لذلك لم يتردّد **أفلاطون** أبدًا من طرد الفنانين والشعراء من مدينته الفاضلة حين أفسدوا أخلاقَ المجتمع ولم يرَ فيهم الإصلاح في إنجاح بثّ الأخلاق.

إنّ الأدب الهامشي يقصد التحرّر من سلطان الكتابة التقليدية إن لم تتوافق مع العصر وما تريده الجماعة بعيدًا عن سطوة السلطة، وذلك بتجاوز أساليب الآداب الكلاسية وأنماط الكتابة وفكرها نحو تجديدٍ في الفكر والأسلوب. وبالتالي، فعصر الأدب الهامشي كان عصر التحوّل نحو تغيير الأساليب إلى كلّ ما هو جديدٌ لتمثيل ثقافة العصر، ويمكن التنويه بالمكانة المؤثّرة التي حازها؛ إذ كان فاتحة عهدٍ جديدٍ في تاريخ الأدب وعلاقته بالفنّ والعلوم والمعارف المختلفة. هذا وقد مثّلتْ ظاهرة التحرّر والالتزام في الأدب الهامشي جوانب مختلفةٍ عمّا كان سائدًا قبلاً سواء ما ارتبط منها بالمجتمع على أساس أن يكون الأدب ملتزمًا بقضايا مجتمعه، أو ارتبط برسائل إنسانيةٍ ساميةٍ كتلك التي اتّسمتْ بها روائع الأدب العالمي عبر العصور.

وبذلك، فمن أهمّ الأسباب التي تدفعنا لإعادة الاعتبار لمختلف إنتاجات الأدب الهامشي هو التفاعل مع مختلف قضايا العصر والشعوب وفق مختلف التطوّرات وما مسّ التجديد الفني أيضًا، بالرغم من أنّه ظلّ منذ فتراتٍ بعيدةٍ لا يعرف تاريخها المضبوط مع ظهور الأدب الشعبي يرشف في الأغلال والقيود التي تحدّ جماليته الفنية، ولكنّه استطاع أن ينطلق نحو الالتزام بمختلف قضايا العصر الاجتماعية والسياسية والثقافية والفكرية... معبّرًا عنها ومتفاعلاً معها بقوّةٍ.

3.3.الأدب الهامشي وقضية بنية الشكل ودلالة المضمون:

إنّ شكل أيّ عملٍ فنيٍّ هو الصورة التي يعبّر بها عن معناه، أمّا معناه فهو يرتبط بالمضمون والمحتوى الذي نُدركه ونحسّه حين نتذوّق هذا العمل الأدبيّ: " إنّ الشكل الجمالي لا يناقض المضمون ولو جدليًا؛ ففي العمل الفنيّ يغدو الشكل مضمونًا والعكس بالعكس"[18]. وقد لازمتْ قضية الشكل والمضمون آراء الكثير من النقاد والمنظّرين عبر العصور*، وقد كان المضمون دلالةً على المعنى الذي نتوخّاه عند قراءتنا نصًّا أدبيًا بعيدًا عن المعنى المباشر لأنّه يرتبط بمعانٍ أخرى كثيرة هي في الواقع سرّ الجمال الفنيّ. وهذا ما يجعلنا لا نقرأ العمل الإبداعي من أجل شكله فقط بل لموضوعه ومضمونه.

وكثيرًا ما تجلّتْ قضية الشكل والمضمون على الساحة النقدية القديمة والحديثة والمعاصرة، نظرًا لاهتمامها بخصائص النوع الأدبي وجمالياته الفنية ومختلف ما رآه المنظّرون فيه من تنوّعٍ. ولا يخفى علينا أنّ كثيرًا من أنواع الفنون بما فيها الأعمال الإبداعية الأدبية قد ضاعتْ أو فقدتْ أهمّيتها وأدبيتها لسببٍ أو لآخر؛ حيث ضاع أو انتفى معها ما تميّزتْ به من جودة السبك وجمال الأسلوب وقوّة المعنى وصدق العاطفة... على غرار ما حدث للملاحم العالمية رغم ارتباطها بالجانب الإنساني آنذاك الذي مثّل سمة العصر والإنسان في حياته وطُرُق عيشه وتفكيره وطقوس ممارسة شعائره الدينية التي ميّزتْ خصاله، حيث تتّصل العلاقة بين الرمز الأسطوري والممارسة التاريخية، بين الواقع والفنّ والفكر والخيال...

وبذلك، فالعلاقة العضوية بين تمام الشكل والمضمون لا يمكن إنكارها أو تجاوزها حتّى في النتاجات الهامشية، على اعتبار الأدب – بمختلف أنواعه- يمثّل كلًّا متكاملاً ويعكس إمّا قضايا قومية أو اجتماعية أو إيديولوجية... فلئن ركّز الشاعر على جانب الشكل فواجبٌ محتّمٌ لأنّ الشعر قوامه الوزن والقافية قبل كلّ شيءٍ آخر، ولو ركّز الأديب على الشكل أكثر من المضمون أو العكس لَجَاز له ذلك حسب ما تقتضيه الضرورة والموضوع والطرق الجمالية: " قد يعالج الموضوع الواحد بمختلف الأساليب الفنية وبكيفياتٍ متباينةٍ، وقد تكون أحيانًا متعارضةً"[19]. – إذا علمنا أنّ هناك أجناسًا أدبيةً تُعرف من طريقة شكلها وأخرى تُعرف من

طبيعة موضوعاتها أو مضامينها وأخرى تُعرف بهم معًا؛ مثل ما يندرج ضمن الأدب الهامشي كالروايات البوليسية والسياسية وروايات الخيال العلمي والجوسسة... وإذا لاحظنا أصحاب المضمون لرأيناهم وهو منصهرون في بوتقة الواقع المعاش، ممن انفتحتْ قرائحهم ورؤيتهم الفنية.

إنّ فهم علاقة الشكل بالمضمون يجعلنا نعيد النظر فيها لتحديد تطوّر الأدب من حيث بناؤه الفنيّ ومحتواه ليصبح نسيجًا متكاملاً يكتسب دلالته الفنية من خلال اتّصاله بذات الفنّان ومحيطه الاجتماعي في الأساس. وعلى كلٍّ فالصورة الغالبة في الاهتمام بالجانب الإيديولوجي بالتركيز على المضمون في العمل الأدبي باعتباره الغاية والهدف الذي يسعى إليه كلّ أديبٍ وكلّ ناقدٍ من وراء تذوّقه فيما حواه وامتاز به من إبداعٍ وتشكيلٍ فنيّ.

ومن هنا، فالتجديد في مقولات النقد الأدبي الحديث والمعاصر أصبحتْ ضرورةً لا مناص منها في ظلّ التراكمات الأدبية الجديدة والمتنوّعة، وبعد أن هبّتْ رياح الحداثة والتجديد في الأدب بما يدخل خانة الإبداع الهامشي، الذي يسعى لتأكيد فكرةٍ هامّةٍ عن التجديد في مفاهيم الأدب وبالتالي النقد، بما يتماشى وروح ومتطلبات العصر والفكر. وقد اتّسمتْ هذه النتاجات الهامشية بالتأثّر بكثيرٍ من المسارات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والثقافية، ممّا أثّر على طبيعة وخصائص ومقوّمات العمل الأدبي.

والحقيقة، إنّ كلّ نوعٍ من أنواع الأدب الهامشي له تجربةٌ فنيةٌ مستقلّةٌ عن غيره وإن تشابهتْ في جوانب أحيانًا، لكنّها قد صِيغتْ بطريقةٍ معيّنةٍ تناسب مضامينها وقيمها وأهدافها وإيديولوجيات المبدع. وإنّ الذوق الفنيّ الذي يحدّد أبعاده بديهيٌّ أن يختلف ويتميّز عن الأدب الرسمي ويتمايز بين الأفراد واختلاف وتنوّع أذواقهم ورؤاهم عن بعضهم. وتعكس تبعًا لذلك معظم أنواع الأدب الهامشي الخروجَ عن جهود الكتابة الفنية وبعيدًا عن تقليد أيٍّ من أساليب الأقدمين ولغتهم إلى صياغةٍ فنيةٍ جديدةٍ شكلاً أو مضمونًا، تعكس طريقة التناول الفريدة في الموضوع المعالج، وإن كان هذا لا يمنع من ارتياد حصون التقليد والصنعة أحيانًا كلّما اقتضتْ الضرورة.

وتحمل هذه النتاجات الهامشية قيمًا فنيةً وجماليةً، وهذا هو الأساس وليس موافقتها للسلطة. ولئن بقي الأدب الهامشي مرفوضًا إلى وقتٍ قريبٍ بسبب النسق المتعارف عليه الذي لا يريد النقّاد تجاوزه، فهذا المعيار ليس من جادة الصواب لأنّ الإبداع يحتاج دائمًا إلى تجديدٍ ولا يعرف قيودًا تحدّه، بل يتقصّى من التفرّد والتميّز ما يجعله يسعى لتمكين نفسه في الواقع الحقيقي.

4.3. الأدب الهامشي وقضايا المجتمع:

إنّ تفرّع المعارف والعلوم إلى ميادين واختصاصاتٍ عديدةٍ بين إنسانيةٍ واجتماعيةٍ وعلميةٍ وتقنيةٍ... جعلها تبتعد عن الأدب البحت بعدما رأت أنّ دائرته توسّعتْ ووجب الانفصال والاعتداد بالتفرقة والتقسيم، وإن بقيتْ علاقاته متشابكةً مع مختلف المعارف والعلوم: " يجب أن يُنظر إلى الأدب في علاقته غير المنفصلة عن حياة المجتمع وفي خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في الأديب"[20]. وما زاد من ذلك هو اختراع الطباعة وتطوّر صناعة الكتب وتراجع نِسب الأميّة نحو الجماهيرية العامّة التي تعتدّ بالأدب الذي يمثّلها.

ومازالتْ إشكالية علاقة الأدب بمختلف جوانب الحياة تُطرح في مجالاتٍ نقديةٍ عديدةٍ ومعاصرةٍ: " يجب أن يُنظر إلى الأدب في علاقته غير المنفصلة عن حياة المجتمع وفي خلفية العناصر التاريخية والاجتماعية التي تؤثّر في الأديب"[21]. لأنّ الأديب لا يملك إلا أن يعبّر عن تجربته وفهمه العام للحياة وتمثيل روح عصره ومجتمعه وتأثير ذلك عليه وبما يعكس فهمه ونظرته. وحينها يصبح الأدب تصويرًا لهذا الفهم ونقلٌ له: " ففي الأصل أنّ الأدب لا يُصنع بل يُولد مع الذات"[22]. لأنّ الأديب يستخدم اللغة استخدامًا خاصًّا للتعبير عن أفكاره: " إنّ التزاوج واقعٌ بين طريقة الأديب الخاصة في استخدام اللغة والطريقة التي تستخدم بها هذه اللغة في المجتمع"[23].

وهنا نحاول الاقترابَ من علاقة الأدب بالمجتمع، محاولين الإجابةَ عن أسئلةٍ جوهريةٍ ترتبط بعلاقة الأدب الهامشي بالمجتمع وقضاياه المختلفة، أو ضرورة تعبيره عن الواقع اليوم ومدى جمالياته الفنيّة ومضامينه وبنائه الشكليّ بمختلف خصائصه وميزاته ومادّة أسلوبه. وكان هدفنا هنا هو توضيح العلاقة الواقعة بين الأدب عامّةً باعتباره جانب جماليّ فنيّ وبين واقع ما يحويه الأدب الهامشي من حقيقةٍ وخيالٍ: فهل تجوز دراسة أنواع الأدب الهامشي بمعزلٍ عن البيئة الاجتماعية وأثرها على الفرد والمجتمع والأديب؟ هل يمكن تخطّي وإهمال عوامل ظهور الأدب الهامشي سواء أكانت سياسية أم اقتصادية أم تاريخية أم اجتماعية؟

كان للظروف السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية العاملَ المؤثّر للتعبير عن فئة المهمّشين في المجتمع، من خلال استعمال عنصر الرمز والتلميح أحيانًا في عدّة نماذج سلّط عليها الكتّاب أضواءهم بما يُبرز قيمتها وأهميتها في أعمالهم الأدبية، وبما تابعوه من تفاصيلها جسّدتْ تلك المعاني؛ وقد ارتبطتْ فكرةُ التهميش بالجانب الاجتماعي مع علماء الاجتماع الذين رأوا اِستفحال هذه الظاهرة في أيّ مجتمعٍ من المجتمعات عبر العصور إلى يومنا هذا، وهذا يرتبط بالسلطة التي تمارس تهميشًا على بعض المثقّفين والأدباء وجعلهم في مناطق الظلّ بعيدًا

عن الأعين والاهتمام والرعاية والحقوق. كما أنّ فكرةَ التهميش كثيرًا ما ترتبط اجتماعيًا بالجانب الثقافي الذي يسهم فيه النقّاد والمبدعون والمفكّرون، ويتعرّضون للتجريح إزاءها مثلما حدث مع **إدوارد الخراط** في بعض كتاباته التي تعرّضتْ للتهميش ليس من قِبَل سلطة الدولة وإنّما من سلطة الكتابة التقليدية التي تعترف فقط بالمألوف والمعتاد*، في حين جسّد **إدوارد الخراط** مفاهيم جمالية جديدة تخصّ الشكل الحداثيّ بعيدًا عن الشكل التقليديّ المهيمن، وهذا الشكل الحداثيّ يتمرّد على محدّدات النوع وخصائصه الجمالية التقليدية.

وقد توسّعتْ دائرة الأدب الهامشيّ في عرض الجوانب الاجتماعية التي تداخلتْ مع مجالاتٍ أخرى واستوعبتْ أبعادها السياسية والدينية والتاريخية، وهذا ما يفسّر تجسيده كبرى القضايا والأحداث الحاصلة في المجتمع التي تعكس واقعًا متزامنًا مع الأحداث في رؤاها ومواقفها وإيديولوجياتها... ولا شكّ في أنّه حاز بذلك -على اتّساعه وشموله- تأثيرًا كبيرًا في القرّاء عبر العالم ككلٍّ وأصبح أكثر مقروئيةً بسبب موضوعاته. لذا ترتبط سوسيولوجيا الأدب الهامشي عمومًا بالناحية الاقتصادية وقضية القرّاء والمستوى الثقافي العام السائد ممّا تحدّده الإحصائيات الدقيقة كعدد النسخ وتمويل طبع الكتاب أو الأرباح المحقَّقة لدى المؤلِّف والناشر.

ولا تتمّ دراسة أيّ نوعٍ من أنواع الأدب الهامشي إلّا بالمرور على البيئة التي نشأ فيها وكيف تمثّلها وعلاقاته غير المتناهية بالمجتمع والواقع المعاش وما اِرتبط بالعناصر التاريخية التي تؤثّر فيه وفي الأدب عمومًا لأنّنا عهدنا دائمًا أنّ الأدب ابن بيئته كونه ظاهرةً اجتماعيةً وليس كيانًا مستقلاً بذاته، يؤثّر فيه ويتأثّر به في كلّ الأحوال والظروف، ومتجدّدٌ حيويٌّ يستوعب تطوّرات العصر وما يسعى الإنسان لتحقيقه بقيمٍ مثاليةٍ وأخرى إنسانيةٍ، وهذا ما كان يسعى إليه الأدب الحقّ عبر العصور: " ولهذا يجب أن تُنزع عن الأدب صفة القداسة ونحرّره من محرّماته الاجتماعية بنفاذها إلى سرّ قوتّه، وعندئذ قد يصير مستطاعًا ليس أن نصنع تاريخ الأدب من جديدٍ بل تاريخ الناس في المجتمع استنادًا إلى حوار مبدعي الكلام والأساطير والأفكار، مع معاصريهم وذريتهم، هذا التاريخ الذي ندعوه أدبًا "[24].

لقد كان ظهور الروايات الهامشية مثلاً نتاجًا لتطوّر فنّ الرواية عمومًا التي اِلتحمتْ مع العديد من الأجناس الأدبية والعلوم والمعارف والتخصّصات الإنسانية التي شكّلتْ سياقات ثقافية تُناسبها وتُناسب رؤيتها، وكانت هذه الرؤية مخالفةً لما هو سائدٌ ومعروفٌ في الأدب الرسميّ، وبذلك حاولتْ مثل هذه النتاجات الهامشية أن تؤسّس لنفسها جينالوجيا خاصّة بها وبعالمها وقرّائها، وتستمدّ مشروعيتها الأدبية عبر الانتساب إلى الأجناس الأدبية مثل الشعر والرواية: " فالنسب الأدبي عامل خلافٍ في كينونة النصّ لدخول حيز المنافسة"[25]. ويمكن النظر إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية العالمية بما فيها ما حدث في أمريكا، بوصفها تأثيرات هامّة

على طبيعة ظهور الأدب الهامشي ومختلف أنواعه الروائية آنذاك إلى ما قاله **باختين** عن نشأة الرواية وأفكاره التي استقاها من نظرية **هيغل**؛ إذ رأى ارتباط الرواية بالانتقال من الإقطاعية التي طوّرت الفنّ الملحمي إلى الرأسمالية التي أوجدتْ فنّ الرواية عمومًا على اختلاف موضوعاتها وطبيعتها. وكأنّ الروايات الهامشية التي ظهرتْ بدايةً في أمريكا كانت نوعًا أدبيًا من الرواية التي عبّرتْ عن واقعٍ جديدٍ ينطق باسم الطبقات الدونية التي تلقّتْه وتزامنتْ مع ازدهار دراسة الأدب الشعبي والثقافات الشعبية.

وقد توسّع ميدان الأدب الهامشي في عرض تداخلاته مع مختلف المجالات الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية والتاريخية المتّصلة به، وهذا ما يفسّر تزامن الأدب مع كبرى القضايا والأحداث الحاصلة في العالم في رؤاها ومذاهبها ومواقفها وإيديولوجياتها... ولا شكّ في أنّه على اتّساعه وتنوّع موضوعات أنواعه أصبح لها تأثيرٌ كبيرٌ في القارئ والعالم ككلٍّ وأصبحتْ أكثر مقروئيةً وفي تبنّي وإخراج الأفكار وتبيين اتّجاهها بما يبرز قيمته وأهميته وإن اختلفت دوافع الكتابة. ولا يمكن أن نتجاهل ما يسهم به الأدب الهامشي في الكشف عن كثيرٍ من أنماط العادات والسلوك والمسكوت عنه إنْ في ثقافة المجتمع الذي أنتجَه أو حتّى في مختلف الثقافات الإنسانية.

- **خاتمة:**

على الرغم من شيوع الأدب الهامشي اليومَ إلّا أنّه مازال في عهوده الأولى دراسةً ونقدًا، تنظيرًا وممارسةً، ومازال ينتظر انطلاقةً فعليةً نحو التأليف والكتابة في فنونه على غرار فروع الأدب الشعرية والنثرية، ولا تعدو الإبداعات فيه تُعدّ وتُحصى في الرواية البوليسية والخيال العلمي مثلاً مقارنةً بنظيراتها عند الغرب. وتبقى مادة الأدب الهامشي غنيةً وثريةً وإن لم يُعطِهِ البرنامج المقرّر للتدريس حقّه الكافي للتعريف بقضاياه وأدبيته وأنواعه المختلفة. ومع ذلك يمكن تلمّس العديد من الخصائص المرتبطة ببنائه اللغويّ الذي يستغلّ كلّ إمكانيات اللغة الموسيقية أو التصويرية أو الإيحائية لينقل إلى المتلقي خبرةً جديدةً منفعلةً بالحياة. وبذلك نستطيع فهم قضايا اجتماعية أو سياسية أو إيديولوجية أو جمالية حاول الأدباء التركيز عليها والتعبير عنها، لتجعلنا ندرك هذا الواقع وندرك طريقتهم الخاصّة التي جعلَتنا نعايش هذا الشعور والتفكير.

ومازال أيضًا هذا النوع الجديد من الأدب يتلمّس طريقة الواضح في الشعاب المتعدّدة التي تطال فنّ الأدب عمومًا؛ ذلك أنّ وجود نتاجات هامشية تَطرح قضايا جديدةً تتعلّق بقضايا المجتمع، فإنّها تطرح أيضًا قضايا جمالية وأسلوبية ولغوية... تُعنى بوضع الآثار الأدبية

في نطاقٍ بيئيٍّ يرتبط بها، وتُفسَّر على أساسها سوسيولوجيا الأدب الهامشي على إثرها. وهذا طبعًا يتجاوز طرح العديد ممن مهّد لعلم اجتماع الأدب بدءًا من **مدام دي ستال**.

أمَا آنّ الأوان لأن يخرج الهامش من ظلامه التليد ليُعلي فلسفتَه المنتفضة عن فكرٍ مثاليٍّ يسعى للارتقاء إلى المركز، بعيدًا عن صراعٍ سجّالي وجدليّ يقوم على التربّص بالآخر وتوسيع هوّة الهامش الذي لن يصير ضمن المركز؟!

هذا يستدعي إعادة النظر في القرارات المجحفة والاهتمام أكثر بالمقاربات الواعية للكشف عن كثيرٍ من الحقائق والمميّزات المرتبطة بأدبيته ووظيفته، وبعيدًا عن أيّ ذاتيةٍ مركزيةٍ تُقصي ما تراه غير مفيدٍ وغير تابعٍ لها. وهذا يستدعي فهم خطاباته واستيعاب خصائصه وقضاياه التي تعبّر عن مجتمعٍ نامي متغيّرٍ، وكذا مراجعة العديد من الإبداعات الشعرية والنثرية التي حفظتْها الذاكرة، حتّى تتّضح معالم جديدة عن آدابٍ كانت مغمورةً أو محسورةً، وهو أمرٌ يُخفي الشيء الكثير عن قضايا الأدب الهامشي.

- الإحالات والتهميشات:

[1] - جلال خشاب، الأدب الهامشي رؤية في المفاهيم والأبعاد، مجلّة التواصل الأدبي، مخبر الأدب العام والمقارن، عنابة، الجزائر، المجلد 9، العدد 2 جوان 2020، ص 26 .

[2] – رمضان بسطاويسي محمّد، الإبداع والحرية " الرمز والسلطة "، دراسة من منظور فلسفي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1992، المجلد 11، العدد الأول، ص 26.

[3] – آسيا بن عبدي، البعد الوظائفي في الأدب الهامشي، رواية الخيال العلمي أنموذجًا، رسالة ماجستير، عنابة، الجزائر، 2006 – 2007، ص 22.

[4] - سليمة خليل، هنية مشقوق، الأدب النسوي بين المركزية والتهميش، الملتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، يومي 09، 10 مارس 2011، ص 261.

[5] - عبد الفتاح كليطو، الأدب والغرابة، دراسات بنوية في الأدب العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1997، ص 38، 39.

[6] - حسن بحراوي، أدب محمّد شكري من الهامشية إلى المركزية، مجلة علامات، مجلة ثقافية محكّمة، العدد 18، سنة 2002، ص 09.

[7] - المرجع نفسه، ص 10.

[8] - المرجع نفسه، ص 14.

[9]- برنارد موراليس: الآداب المضادة، ترجمة وتقديم حسن الطالب، مقدّمة المترجم، ص 1، www.Noor-Book.com

* ينظر للتفاصيل مقدّمة ترجمة كتاب: برنارد موراليس: الآداب المضادة، ترجمة وتقديم حسن الطالب، www.Noor-Book.com

[10]- المرجع نفسه، مقدّمة الكتاب.

[11] - محمّد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص الشعري، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008، ص 93.

[12] - ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1986، ص 9، 10.

[13] - شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية، مذاهب ومدارس في الأدب المقارن، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ص 172.

[14] – نخبة من الأساتذة، الأدب والأنواع الأدبية، ترجمة صالح حجار، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1985، ص 46.

[15] – المرجع نفسه، ص 48.

[16] - شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية، مذاهب ومدارس في الأدب المقارن، مرجع سابق، ص 216 .

[17] - المرجع نفسه، ص 218.

[18] – ماركوز هربرت، البعد الجمالي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1979، ص 55.

* للمزيد من التفاصيل ينظر كتاب: شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية، مرجع سابق، ص 241 وما بعدها.

[19] - شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية، مرجع سابق، ص 249.

[20] - روبرت إسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، تعريب آمال أنطوان عرموني، دار عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1999، ص 25.

[21] – المرجع نفسه، ص 25.

[22] – المرجع نفسه، ص 22.

[23] - عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دراسة ونقد، دار الفكر العربي، الطبعة السادسة، 1976، ص 42 .

* ينظر للمزيد من التفاصيل: إدوارد الخراط، أنا والطابو، مقاطع من سيرة ذاتية للكتابة عن السلطة والحرية، مجلة فصول، المجلّد 11، العدد 03، ص 45 وما بعدها.

[24]– روبرت إسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، مرجع سابق، ص 132.

[25]- معجب العدواني، الموروث وصناعة الرواية، مؤثّرات وتمثيلات، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2013، ص 28.

- قائمة المصادر والمراجع:

[1] - آسيا بن عبدي، البعد الوظائفي في الأدب الهامشي، رواية الخيال العلمي أنموذجًا، رسالة ماجستير، عنابة، الجزائر، 2006 – 2007 .

[2]- إدوارد الخراط، أنا والطابو، مقاطع من سيرة ذاتية للكتابة عن السلطة والحرية، مجلة فصول، المجلّد 11، العدد 03.

[3] – برنارد موراليس: الآداب المضادة، ترجمة وتقديم حسن الطالب، مقدّمة المترجم ، -www.Noor Book.com

[4] - جلال خشاب، الأدب الهامشي رؤية في المفاهيم والأبعاد، مجلّة التواصل الأدبي، مخبر الأدب العام والمقارن، عنابة، الجزائر، المجلّد 9، العدد 2 ، جوان 2020.

[5] - حسن بحراوي، أدب محمّد شكري من الهامشية إلى المركزية، مجلة علامات، مجلة ثقافية محكّمة، العدد 18، سنة 2002.

[6] - رمضان بسطاويسي محمّد، الإبداع والحرية " الرمز والسلطة "، دراسة من منظور فلسفي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، الطبعة الثانية، 1992، المجلد 11، العدد الأول.

[7]- روبرت إسكاربيت، سوسيولوجيا الأدب، تعريب آمال أنطوان عرموني، دار عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1999 .

[8] - سليمة خليل، هنية مشقوق، الأدب النسوي بين المركزية والتهميش، الملتقى الدولي الأول في المصطلح النقدي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، يومي 09، 10 مارس 2011 .

[9]- شفيق البقاعي، الأنواع الأدبية، مذاهب ومدارس في الأدب المقارن، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر.

[10]- عبد الفتاح كليطو، الأدب والغرابة، دراسات بنوية في الأدب العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1997.

[11]- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دراسة ونقد، دار الفكر العربي، الطبعة السادسة، 1976 .

[12] - ماركوز هربرت، البعد الجمالي، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1979 .

[13]- محمّد صابر عبيد، المغامرة الجمالية للنص الشعري، عالم الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2008 .

[14]- معجب العدواني، الموروث وصناعة الرواية، مؤثّرات وتمثيلات، منشورات ضفاف، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، 2013.

[15]- ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، 1986 .

[16] - نخبة من الأساتذة، الأدب والأنواع الأدبية، ترجمة صالح حجار، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، 1985

- رومنة المصادر والمراجع العربية:

1- Āsiyā ibn ʻAbdī, al-Buʻd alwẓā'fy fī al-adab al-hāmishī, riwāyah al-Khayyāl al-ʻIlmī unamūdhajan, Risālat mājistīr, ʻAnnābah, al-Jazā'ir, 2006 – 2007.
2- Idwārd alkhrāṭ, Anā wālṭābw, maqāṭiʻ min syrh dhātyh lil-kitābah ʻan al-Sulṭah wa-al-ḥurrīyah, Majallat fuṣūl, almjlld 11, al-ʻadad 03.
3- Bernard mouralis : al-Ādāb al-muḍāddah, tarjamat wa-taqdīm Ḥasan al-ṭālib, mqddmh al-mutarjim, www. Noor-Book. Com
4- Jalāl Khashshāb, al-adab al-hāmishī ru'yah fī al-mafāhīm wa-al-abʻād, mjllh al-tawāṣul al-Adabī, Makhbar al-adab al-ʻāmm wa-al-muqāran, ʻAnnābah, al-Jazā'ir, almjlld 9, al-ʻadad 2, Juwān 2020.
5- Ḥasan Baḥrāwī, adab mḥmmd Shukrī min al-hāmishīyah ilá al-Markazīyah, Majallat ʻAlāmāt, Majallat thaqāfīyah mḥkkmh, al-ʻadad 18, sanat 2002.
6- Ramaḍān Basṭāwīsī mḥmmd, al-ibdāʻ wa-al-ḥurrīyah "al-ramz wa-al-sulṭah", dirāsah min manẓūr falsafī, Majallat fuṣūl, al-Hay'ah al-Miṣrīyah al-ʻĀmmah lil-Kitāb, al-Qāhirah, Miṣr, al-Ṭabʻah al-thāniyah, 1992, al-mujallad 11, al-ʻadad al-Awwal.
7- Robert Escarbit, Sūsiyūlūjiyā al-adab, taʻrīb Āmāl Anṭwān ʻrmwny, Dār ʻUwaydāt lil-Nashr wa-al-Ṭibāʻah, Bayrūt, Lubnān, al-Ṭabʻah al-thālithah, 1999.
8- Salīmah Khalīl, Hanīyah mshqwq, al-adab al-niswī bayna al-Markazīyah wa-al-tahmīsh, al-Multaqá al-dawlī al-Awwal fī al-muṣṭalaḥ al-naqdī, Jāmiʻat qāṣdy mrbāḥ, Warqalah, al-Jazā'ir, yawmay 09, 10 Mārs 2011.
9- Shafīq al-Biqāʻī, al-anwāʻ al-adabīyah, madhāhib wa-madāris fī al-adab al-muqāran, Mu'assasat ʻIzz al-Dīn lil-Ṭibāʻah wa-al-Nashr.
10- Abd al-Fattāḥ Kilīṭū, al-adab wālghrābh, Dirāsāt bnwyh fī al-adab al-ʻArabī, Dār al-Ṭalīʻah lil-Ṭibāʻah wa-al-Nashr, Bayrūt, Lubnān, al-Ṭabʻah al-thālithah, 1997.
11- Izz al-Dīn Ismāʻīl, al-adab wa-funūnuh, dirāsah wa-naqd, Dār al-Fikr al-ʻArabī, al-Ṭabʻah al-sādisah, 1976.
12- Mārkwz Herbert, al-Buʻd al-jamālī, tarjamat Jūrj Ṭarābīshī, Dār al-Ṭalīʻah, Bayrūt, Lubnān, al-Ṭabʻah al-ūlá, 1979.
13- Mḥmmd Ṣābir ʻUbayd, al-Mughāmarah al-Jamālīyah lil-naṣṣ al-shiʻrī, ʻĀlam al-Kutub al-ḥadīthah lil-Nashr wa-al-Tawzīʻ, ʻAmmān, al-Urdun, 2008.

14- Mu‘jab al-‘Adwānī, al-mawrūth wa-ṣinā‘at al-riwāyah, m’ththrāt wtmthylāt, Manshūrāt Ḍifāf, Manshūrāt al-Ikhtilāf, al-Ṭab‘ah al-ūlá, 2013.
15- Mīshāl bwtwr, bḥwth fī alrwāyh aljdydh, trjmh fryd anṭwnyws, Manshūrāt ‘wydāt, byrwt, lbnān, alṭb‘h althālthh, 1986.
16- Nukhbah min al-asātidhah, al-adab wa-al-anwā‘ al-adabīyah, tarjamat Ṣāliḥ Ḥajjār, Ṭalās lil-Dirāsāt wa-al-Tarjamah wa-al-Nashr, Dimashq, Sūriyā, al-Ṭab‘ah al-ūlá, 1985.